

## العوامل الخارجية التي ساهمت في فوز حماس

### د. محمد عبد العزيز ربيع

أشارت استطلاعات الرأي العام الفلسطيني عشية يوم الانتخابات إلى أن حماس كانت تحظى بتأييد شعبي في حدود 30%. من ناحية أخرى، أشارت استطلاعات آراء الخارجيين من مراكز الاقتراع، والتي كانت تبثها محطات التلفزيون مباشرة خلال يوم الانتخابات، إلى أن نسبة الذين صوتوا لصالح حماس كانت حوالي 32%، وذلك مقابل 36% لصالح فتح. وبعد إعلان النتائج الرسمية وتأكيد فوز حماس بأيام، أشار استطلاع آخر إلى بقاء شعبية حماس على حالها. كما أشار نفس الاستطلاع إلى أن ما يزيد عن 80% من الفلسطينيين يؤيدون حلاً سياسياً للصراع مع إسرائيل على أساس إقامة دولتين تعيشان جنباً إلى جنب على أرض فلسطين.

في ضوء هذه الأرقام والحقائق يبدو من الصعب تفسير فوز حماس بما يقارب 60% من مقاعد المجلس التشريعي، والافتناع بأن مثل هذه النسبة المرتفعة من الفلسطينيين تؤيد الكفاح المسلح طريقاً لحل الصراع، وهو ما تدعو إليه حماس وتمارسه على أرض الواقع، وكأن الشعب الفلسطيني قرر ليلة الانتخابات مضاعفة دعمه لحماس وتأييده لخطابها السياسي، ثم عاد بعد أيام قليلة إلى موقفه السابق المؤيد لحل سياسي مع إسرائيل. لذا لا بد وأن يكون هناك تفسير آخر أكثر علمية من ظواهر هذه الأرقام، والذي أعتقد أنه يكمن في ردود الفعل الشعبية على مواقف إسرائيل العنصرية وممارساتها الإجرامية، والمراوغة الأمريكية واستمرار إدارة بوش بدعم السياسة الإسرائيلية بغض النظر عن ممارساتها ورفضها لقرارات الشرعية الدولية، وعدم احترامها للاتفاقات الموقعة مع السلطة الفلسطينية. وبالرغم من تصاعد شعبية حماس خلال السنوات القليلة الماضية، فإن التصويت لصالحها كان، في جانب كبير منه، تعبيراً عن رفض الشعب الفلسطيني لسياسة الاستيطان الإسرائيلية، وسياسة أمريكية منحازة لإسرائيل ومعادية لاماني الشعوب العربية، ولغزو العراق، وللضغط على لبنان، وللتهديد بالسافر لسوريا وإيران.

قبل أربعة أعوام، وبينما كان الجدل دائراً حول نوايا أمريكا تجاه العراق، وفيما إذا كان الرئيس بوش ينوي شن حرب للإطاحة بالرئيس العراقي، حذرت من مغبة غزو العراق، قائلاً بأن ذلك سيؤدي إلى تصاعد الأعمال الإرهابية، وزيادة شعبية الحركات الإسلامية، وتنامي الكراهية لأمريكا وإسرائيل. ويبدو أن الانتخابات وفرت للجماهير الفلسطينية والعربية المغلوبة على أمرها، والتي أرهقتها الوعود السلمية الكاذبة، وأهانتهما السياسات العدوانية الإسرائيلية والأمريكية، الفرصة للتأثر من أمريكا وإسرائيل معاً. ومما يعزز هذا الاستنتاج أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر حصلت على حوالي 20% من المقاعد النيابية في مجلس الشعب في أول عملية انتخابية وصفت بأنها شبه نزيهة. وبينما قامت الجماهير الفلسطينية بالتصويت لصالح حماس بأعداد كبيرة، قامت الجماهير العربية، خاصة الملتزمة منها بخط حماس السياسي والفكري، بدعم حملة حماس الانتخابية بالمال والدعاية الإعلامية. وعلى سبيل المثال، كانت محطة الجزيرة المتعاطفة أصلاً مع التيار الإسلامي، تضع دوماً صور مقاتلي حماس وأشباهها وهم يحملون السلاح ويرتدون على رؤوسهم الوشاح الأخضر في خلفية الأخبار المتعلقة بالانتخابات الفلسطينية.

اتجهت الحكومة الإسرائيلية، ومنذ استلام شارون منصب رئيس الوزراء، إلى العمل الدعوب على إضعاف السلطة الوطنية الفلسطينية وإحراج رئيسها، وذلك من خلال تدمير البنية التحتية، وضرب قوى الأمن وهدم مراكزهم، وإغلاق الطرق المؤدية إلى المدن، وإقامة الحواجز للحيلولة دون انتقال الناس والبضائع من مكان لآخر بشكل طبيعي، وهدم آلاف المنازل، وقطع

عشرات الآلاف من الأشجار المثمرة، والاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية. ولقد تسبب هذا في خنق الاقتصاد الفلسطيني، وتدهور معدلات النمو الاقتصادية، وتضاعف نسبة البطالة إلى مستويات قد تكون الأعلى في العالم، وزيادة نسبة وحدة الفقر، خاصة في قطاع غزة، وارتفاع معدلات الجريمة والانفلات الأمني، وتصعد سلطات وهيبة الرئاسة الفلسطينية.

إلى جانب ذلك، قامت حكومة شارون بمحاصرة الرئيس الفلسطيني السابق، السيد ياسر عرفات في مقر إقامته، كما رفضت التفاوض مع الجانب الفلسطيني بحجة عدم وجود شريك معتدل يؤمن بالسلام والتعايش السلمي. وبعد وفات الرئيس عرفات وانتخاب محمود عباس (أبو مازن) خلفا له، لجأت حكومة إسرائيل إلى عمل كل ما في وسعها لإضعاف أبو مازن واتهامه بعدم القدرة على السيطرة على الأمن والسكوت على نشاطات الفصائل المسلحة، كما استمرت في اغتيال القيادات الفلسطينية بالرغم من التزام حماس وغيرها بالتوقف عن أعمال العنف. ولقد استهدفت الحكومة الإسرائيلية من تلك السياسة إظهار الشعب الفلسطيني بمظهر المعادي للسلام، وإظهار رئيسه بمظهر العاجز عن ممارسة صلاحياته والمتهرب من الوفاء بالتراماته.

ولهذا تبنت حكومة شارون سياسة لرسم حدود إسرائيل كدولة استعمارية استيطانية، وذلك دون التشاور مع الفلسطينيين، ودون احترام قرارات هيئة الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين، ودون الالتزام بالمقترحات الدولية لحل القضية الفلسطينية. وبالرغم من تعهد شارون بالسير على هدي خارطة الطريق، إلا أنه وضع 17 شرطا إضافيا للقبول بها، أفرغتها من محتواها وقدرتها على تحقيق السلام. ولقد كان من نتيجة ذلك تجميد عملية السلام التي كانت تعيش أصلا حالة احتضار، واستمرار إسرائيل في بناء الجدار الفاصل لعزل نفسها وتحديد حدودها بشكل يضم جزءا كبيرا من أراضي الضفة الغربية إلى الكيان الصهيوني، ويحول دون قيام دولة فلسطينية مستقلة وذات سيادة، ومتواصلة من الناحية الجغرافية.

وبينما كانت إسرائيل تمارس هوايتها المحببة في إذلال الشعب الفلسطيني واغتيال قياداته السياسية والعسكرية والاستيلاء على أراضيه وحرمانه من حق العمل والحياة حياة كريمة تليق بإنسانية الإنسان، كان بوش يغمض إحدى عينيه عن الانتهاكات الإسرائيلية، ويبتسم لشارون بالعين الأخرى. وبينما كان الكونجرس الأمريكي يمد يديه مثقلة بالمال والعتاد وتكنولوجيا السلاح لإسرائيل، كان بوش يمد يديه المدججة بالسلاح ومستلزمات القتل والدمار لضرب العراق، ويجيز انتهاك المعايير الدولية في معاملة الأسرى والمعتقلين، ويسكت على تعذيب بعضهم حتى الموت.

وفي ضوء هذه الحقائق والتطورات لم يكن أمام المقهور سوى الرد على القاهر باستخدام أبسط الوسائل المتاحة وأكثرها ديمقراطية، وهو الرد الذي أوصل حماس إلى سدة الحكم من خلال العملية الانتخابية. ولقد فرض هذا التطور واقعا إيديولوجيا وجيوستاسيا جديدا في منطقة الشرق الأوسط، سنحاول في مقالات قادمة مناقشة تداعياته والسيناريوهات المحتملة لردود الفعل عليه.

د. محمد عبد العزيز ربيع للنشر يوم الثلاثاء 2006-3-14

[professorrabie@yahoo.com](mailto:professorrabie@yahoo.com)